9

بيان تأجيل الأحلام الجماهيرية إلى أجل غير مسمى

obeikan.com

obeikan.com

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر بيان (٣٠ مارس) [١] ليمتص غضب الطلاب ، وغضب الحركة الشعبية بفصائلها المختلفة ، بزعم أنه سوف ينفذ طلباتهم ، ولكي يتخذ الأمر فرصة ، بعد أن هزت المظاهرات شرعيته ، وشرعية نظامه ، لتدعيم شرعيته وشرعية نظامه باستفتاء عام طالب به في نهاية البيان ، وتم تنفيذه بالفعل « وجاء بنتائج مبهرة » .

ضم البيان كلامًا جميلًا ، وسُمًا زعافًا .

الكلام الجميل أراح النفوس لوقت قصير ، لكن السم الزعاف عندما سرى في أوصال « الموافقين » بعد ذلك ، أحال راحتهم غضبًا وهدأتهم انفلاتًا .

لقد وصف جمال عبد الناصر بيانه « في بيانه » بأنه « برنامج للتغيير يستجيب للآمال العريضة التي حركت جماهير شعبنا إلى وقفتها الخالدة يومي ٩، ١٠ يونيو » ، وقال : « إن التغيير المطلوب لابد وأن يكون تغييرًا في الظروف وفي المناخ ، يجب أن يكون فكرًا أوضح وتخطيطًا أدق » .

كلام جميل ، فأين السم الناقع فيه ؟

كان السم هو تجاهل عبد الناصر لمظاهرات فبراير « التي جاء البرنامج ردًا عليها ، لتهدئتها » ، وحديثه عن وقفة الجماهير الخالدة في ٩، ١٠ يونيو ، ولقد كان عبد الناصر يعرف أن الوقفة الخالدة في ٩، ١٠ يونيو « وكان هيكل صائغ البيان أيضًا يعلم » ، لم تكن دعوة للتغيير ، بل كانت دعوة للاستمرار ، الاستمرار في طريق الثورة لتفويت الفرصة على الاستعمار العالمي وطليعته في المنطقة « إسرائيل » ، في مصر أن يجنوا ثمار انتصارهم العسكري المدوي على نظام عبد الناصر ، عبد الناصر كان يفهم « وهيكل أيضًا » أن وقفة الشعب لم تكن من أجل عبد الناصر شخصيًا ،

(١) نص البيان في ملاحق الكتاب .

ولكن كانت من أجل ثورة نادت بآمال الشعب المصري ، وحققت بعض الآمال ، كانا يفهمان ذلك بدليل أن البيان نفسه وصف الوقفة الخالدة في ٩، ١٠ يونيو « وهي حقيقة خالدة » بأنها أظهرت تصميمًا « يرفض الهزيمة ويثق في النصر » ؛ ولم يكن هذا الوصف تواضعًا من جمال عبد الناصر ، الذي نادت المظاهرات في ٩، ١٠ يونيو بعودته وبقائه ، فالحقيقة أن المظاهرات نادت بعودته رفضًا للهزيمة ، ورفضًا لأن يحقق الأمريكيون رغباتهم ضد أماني هذا الشعب « ناهيك عن أن حجم المأساة التي قادتنا للهزيمة المرة لم يكن قد اتضح بعد » .

والحقيقة أن رجال عبد الناصر « فهموا مغزى الوقفة أو لم يفهموه » ، كانوا يصورون الأمر دائمًا على أن ما حدث في ٩، ١٠ يونيو كان تمسكًا بعبد الناصر « شخصيًا » وتفويضًا له بأن يفعل كما يشاء ، ولم يكن الأمر كذلك أبدًا ، بدليل أن صيحات الجماهير والمثقفين من أجل التغيير ، بدأت مباشرة بعد أن حقق الشعب رغبته في الاستمرار ، وكانت صيحات التغيير هذه رفضًا للتفويض ، وقبولًا لعبد الناصر ، ليس كما كان ، ولكن قبولًا لعبد الناصر « بشروطهم » .

إذن لماذا اختار جمال عبد الناصر تلك الوقفة الخالدة « التي كان يفهم مغزاها جيدًا ، وكان يفهم مغزاها هيكل أيضًا » ، ليكون بيان ٣٠ مارس استجابة لها ؟!

هذا هو السم الزعاف بعينه .

إنها « عبد الناصر ، وصائغ أفكاره وناصحه محمد حسنين هيكل » أرادا بهذا الاختيار أن يقولا للناس شيئين :

أولهما : أن المقبول هو التفويض الكامل!! ، أما « الاعتراض والمطالبة » فهما غير مقبولين على الإطلاق « العسكريون يتعاملون مع مطالب الناس ، على أنها « لوي ذراع » غير مقبول ، وبالتالي يرون الديمقراطية هي الأخرى لي ذراع ، ويرونها لهذا

مرفوضة» ، لقد أحب البيان أن يقول للناس « دسا للسم الزعاف » ٩، ١٠ يونيو مقبولة ، أما التظاهر والضغط على الحاكم فمرفوض ولن يأتي بأية نتائج » .

ثانيهما : تصوير أن مطالب الناس ، هي ما كان يريد أن يحققه جمال عبد الناصر وما سوف يحققه فلماذا التظاهر و« شغل العيال » ، بدون « شغل العيال » هذا ، كان جمال عبد الناصر سيحقق لكم ما تريدون ، فناموا واستريحوا ـ بعد تفويضه الكامل ـ وانتظروا .

لقد كان كل ما يريده جمال عبد الناصر هو أن ينتظر الناس ، وأن ينتظروا هادئين « سواء استطاع عبد الناصر تنفيذ ما يريدونه ، أو خذلته الظروف التاريخية الصعبة والمنعطفات الحرجة و.... و... سلسلة اخجج الجاهزة ، وبعضها كان حقيقيًا فلم يستطع أن ينفذ شيئًا ، إلا ما تقبله دماغه » .

لهذا حرص البيان على أن يقول : « وإني لأرجو أن يكون اتفاقنا كاملًا « خل بالك من كاملًا هذه » على أنه ليس هناك الآن ، ولا ينبغي أن يكون « خل بالك من لا ينبغي هذه » ، صوت أعلى من صوت المعركة ولا نداء أقدس من ندائها » .

كان المعنى المراد من هذه الكلمات : «انتظروا.. انتظروا.. لا تطالبوا بالتغيير ؛ لأن وراءنا معركة» . بل كان معناه أن من يطالب بالتغيير خائن لأنه يعطل المعركة ؛ ولأنه صوته يعلو على صوت صوتها ؟!!

لقد كنا نطالب ـ والحركة الشعبية الأم ـ بالتغيير ، لبناء دولة عصرية قادرة على الانتصار في كل معاركها ، سواء معاركها العسكرية ، أو معركتها الكبرى في التنمية لصالح الشعب وقدراته الفعالة ، وضد مخططات الرأسمالية العالمية، وكنا نرى أن دولتنا بدون التغيير المطلوب ، بل التغيير الذي كان قضية حياة أو موت ، لن تقوم لها قائمة « القائمة التي نريدها ، وليست القائمة التي يجيد العسكريون توصيلنا إليها

بأخطائهم الفادحة » .

كنا نريد ذلك ، وجاء بيان ٣٠ مارس ليقول لنا : انتظروا ، سوف يحقق جمال عبد الناصر لكم ما تريدون عندما يستطيع ، نفس اللعبة التي مارسها معنا السادات فيما بعد ، لكنه كان يقصد « انتظروا حتى النهاية » ، نهاية أحلامنا بالطبع في التحرر الوطني الذي هو العزة القومية التي ترفض التبعية ، نهاية حلمنا في العدل الاجتماعي ، وفي الديمقراطية الحقيقية « التي هي بالطبع شيء آخر غير ديمقراطية « ابقى هبهب في الجرايد » على رأي بيرم التونسي رحمه الله » ، وفي تكوين كيان عربي موحد يستطيع الوقوف في وجه التكتلات الكبرى في عالمنا ، وهذه هي خطورة اللعبة ، فنتائج الانتظار والتفويض تعتمد على شخص الحاكم ومراميه الخفية ، لهذا كنا نرفضها مع عبد الناصر الذي نثق في وطنيته ونزاهته ، وكان أولى بنا أن نرفضها مع غيره ممن لا نثق فيهم ، فما الذي يضمن لنا ، لقد خذل عبد الناصر الوطني الشريف آمالنا وجاءنا بالنكسة ، وخذل السادات ومدرسته ، آمالنا وجاءنا بالنكسة الكبرى .

ما دام الأمر كذلك ، فلماذا التأخير ؟

ولكي يبرر جمال عبد الناصر أن بيان ٣٠ مارس « للأسباب التي وضحتها » كان استجابة لوقفة الشعب في ٩، ١٠ يونيو « ولم يكن استجابة لأي شيء آخر » ، كان عليه أن يبرر البيان عشرة شهور كاملة بعد الوقفة الخالدة ولم يكن الأمر ليستعصي عليه، ولا على هيكل أيضًا « المشكلة أن الأمر لا يستعصي على العسكريين أبدًا ، ولا على ناصحيهم ، ولا على المطبلين لهم وهم غير الناصحين بالفعل » .

برر عبد الناصر تأجيل البيان « كما أحب أن يظهر لنا الأمر » بأن كان عليه أن ينجز إنجازات تاريخية قبله ، حتى نستطيع أن نتطلع إلى المستقبل « بالبيان » :

أولها : إعادة بناء القوات المسلحة .

ثانيها : تحقيق الصمود الاقتصادي .

ثالثها : تصفية مراكز القوى « بالطبع كان قد أزاح بعضها ، ليستشري فينا البعض الآخر » .

رابعها : فضح انحرافات وأخطاء المرحلة السابقة عن طريق المحاكمات العلنية « هكذا قال في بيانه » .

خامسًا : القيام بجهد سياسي على جبهات عربية وجبهات دولية .

كانت النقاط الخمس هذه هي تبرير جمال عبد الناصر لتأخر البيان بعد وقفة تسعة وعشرة يونيو ، (تسْعة وعشرة شهور)، كانت التبرير الذي أجهد عبد الناصر نفسه ، ليقوله حتى لا يعترف بأن المظاهرات استطاعت أن تلوي ذراعه .

ولكن عبد الناصر ، كان يعلم أننا كنا نطالب بالديمقراطية ، « التي كان فهمنا لها قاصرًا ، ليس بسبب أعمارنا الصغيرة وحدها ، ولكن أيضًا بسبب التجهيل المستمر بماهيتها ، لقد كنا نفهمها فقط على أنها حرية الرأي والفكر وحرية الإعلان عنهما « وهما يشملان حرية الصحافة » ، ووصول ممثلين حقيقيين لنا ولآمالنا إلى مجلس الأمة ، وحرية العمل الثقافي ، هذا كل ما كنا نفهمه عن الديمقراطية ، كان فهمنا قاصرًا ، يتجاهل أو يجهل أسس الديمقراطية الراسخة في المجتمعات ، لهذا كنا نطالب الحكم بالديمقراطية ، ولا نطالب بترسيخ أسسها في مجتمعنا ، وكان يعلم أيضًا أننا لن نسكت حتى تتحقق « ولو على أساس فهمنا القاصر » لهذا قرر جمال عبد الناصر أن يتكلم عن الديمقراطية التي نريدها ، ولكن بالشكل الذي يريده هو .

نعم للديمقراطية المؤجلة :

قال البيان : « إن المسئولية التاريخية « كل مسئوليات الثورة تاريخية » للأيام العصيبة « وكل أيامها عصيبة » ، والمجيدة « وكل أيامها مجيدة ، حتى تلك الأيام

التي تلت نكسة يونيو ١٩٦٧ » ، التي نعيش فيها ، ونعيش لها ، تطرح علينا برنامج عمل له جانبان :

الجانب الأول : حشد كل قوانا العسكرية والاقتصادية والفكرية ، على خطوطنا مع العدو لتحرير الأرض وتحقيق النصر .

الجانب الثاني : تعبئة كل جماهيرنا من أجل واجبات التحرير ، والنصر ومن أجل آمال ما بعد النصر ، « خل بالك من أن تحقيق « الآمال » بعد النصر ، إنها إشارة واضحة لفلسفة انتظروا » .

هذا هو البرنامج ، وهذان هما جانباه ، فأين الديمقراطية ؟

قال البيان : « إنه من الضروري والحيوي حشد كل القوى الشعبية وبوسيلة الديمقراطية ، وعلى أساسها ، وراء أهداف نضالنا القريبة والبعيدة » .

الديمقراطية التي أرادها جمال عبد الناصر إذن كانت وسيلة حشد ولم تكن وسيلة تصحيح مسار « يريدها حشدًا وراء مساره هو » .

وقال البيان : « إن صيغة الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب أكثر الصيغ ملائمة لحشد القوى الشعبية بوسيلة الديمقراطية ، بعد تجديد الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب بدلًا من التعيين .

أي أن الأمر سيبقى على ما كان عليه ، الديمقراطية وسيلة حشد ، والاتحاد الاشتراكي وسيلة الحشد .

هكذا ابتلع البيان الديمقراطية التي تكلم عنها ـ البيان ـ كثيرًا جدًا .

وبالطبع كان لابد وأن يجيء الدور على بقية مطالب الطلبة « مطالب الحركة الشعبية الأم ، التي أعلنها الطلاب إعلانًا صاخبًا مدويًا » .

تصورات جمال عبد الناصر ، لا مطالبنا :

قال البيان : « لكي يكون هناك ضوء كاف على طريقنا فإنني أريد من الآن أن أضع أمامكم تصوري تصوره وليست تصوراتنا التي عبرت عنها مطالبنا لبعض المهام الرئيسية في المرحلة القادمة من نضالنا » .

إنها ليست مطالب الشعب ، إنها تصورات الرئيس جمال عبد الناصر .

« حتى لا يعترف بأن من الممكن الضغط عليه » أما تصوراته فهي :

١ ـ تأكيد وتثبيت دور قوى الشعب العاملة وتحالفها وقيادتها في تحقيق سيطرتها بالديمقراطية « إياها » على العمل الوطني في كافة مجالاته .

٢ - تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة في مصر « التي تقوم على الديمقراطية « إياها » وعلى العلم والتكنولوجيا » .

٣ - إعطاء التنمية الشاملة دفعة أكبر في الصناعة والزراعة ، مع الضغط على أهمية إدارة المشروعات إدارة اقتصادية وعلية .

٤ - العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية والاهتمام بالشباب إتاحة الفرصة أمامه للتجربة .

٥ - إطلاق القوى الخلاقة للحركة النقابية .

٦ - تعميق التلاحم بين جماهير الشعب والقوات المسلحة .

٧ - توجيه جهد مركز نحو عمليات البحث عن البترول لما أكدته الشواهد العملية من احتمالات بترولية واسعة في مصر .

٨ - توفير الحافز الفردي تكريمًا لقيمة العمل .

٩ - وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

١٠ - ضمان حماية الثورة في ظل سيادة القانون .

ولابد الآن أن أقول للقارئ : إن التصورات (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، (٨) ، (٩) كانت بعض مطالبنا .

أما التصورات (٦) ، (١٠) فقد كانت بعض مطالب عبد الناصر .

يبقى التصور رقم (٧) وهو الخاص بالبترول ، فهل وضع هنا « حلاوة » لمن سينتظر هادئًا فتنفرج الأمور من حوله ، ويطلع لها حل من تحت الأرض .

ولعل القارئ قد لاحظ مثلما لاحظنا أن التصور رقم (٤) يضم عنصرين ، وكان الأولى « والأمر الذي لم يكن ليفوت فصاحة الأستاذ هيكل » ، أن يصبح تصوران هما العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية ، والاهتمام بالشباب ، فهل لنا أن نتساءل لماذا دمجا في تصور واحد ؟

هل كان المقصود أن الاهتمام بالشباب لن يكون إلا إذا تمسكوا بالقيم الخلقية ولم يتظاهروا ضد جمال عبد الناصر ؟ ، هل كان تهديدًا للشباب إذا ظلوا على حالهم ، بأنه سيتهمهم بالشيوعية ، التي لا تدعم - في نظر عبد الناصر - القيم الروحية والخلقية (راجع كتابه الأضحوكة عن «حقيقة الشيوعية») .

المستعجل ينتظر الدستور الدائم :

كانت هذه بعض مطالبنا كما قلنا ، فأين بقية المطالب ؟

الإجابة تأتينا من البيان ، بقية المطالب مؤجلة « انتظروا » حتى يتم إعداد دستور دائم بدلًا من الدستور المؤقت الصادر في ١٩٦٤ ، وكانت أهم هذه المطالب المؤجلة « وخل بالك كويس » :

* أن تتوفر كل الضمانات للحرية الشخصية والأمن بالنسبة لجميع المواطنين وفي

كل الظروف « مؤجلة ومشروطة بأن ينهي هو «عبد الناصر» دولة المباحث والمخابرات ، فهل كان سينهيها؟!! » .

* أن تتوفر كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث العلمي والصحافة « لاحظ تأخر الصحافة إلى آخر الصف ، ولاحظ أن كل الضمانات بما فيها ضمان حرية الصحافة مؤجل وسوف يحدد هو مغزاه ومعناه وطبيعته وحدوده » .

* أن ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها بما في ذلك رئيس الدولة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية « الفصل بين السلطات أولى مبادئ الديمقراطية .... مؤجلة » .

* أن ينص في الدستور على حصانة القضاء وأن يكفل حق التقاضي ولا ينص في أي إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء ، ذلك أن القضاء هو الميزان الذي يحقق العدل ويعطي لكل ذي حق حقه ، ويرد أي اعتداء على الحقوق أو الحريات « مؤجلة » .

* أن ينص الدستور على حد زمني معين لتولي الوظائف السياسية والتنفيذية الكبرى ؛ وذلك ضماناً للتجديد وللتجدد باستمرار « طبعًا مؤجلة ونُص » .

كل هذا من مطالبنا غدا مؤجلًا إلى حين إعلان الدستور الدائم « دساتير الثورة كانت كلها مؤقتة » ، وغدا الدستور الدائم نفسه مؤجلًا فيما بعد » .

بمرور الوقت رأت الحركة الشعبية أن القليل الذي نص عليه بيان ٣٠ مارس كان كلامًا جميلًا « لكنه وضع على الرف » ، وبدؤوا يشعرون فيه بآثار السم الزعاف ، سم الديكتاتورية التي ترى الخضوع لمطالب الشعب ضعفًا ، والتي حين تضعف ، تناور وتسوِّف وتؤجل ، وتفتح علينا أبواق دعايتها التي تصم آذاننا ليلًا ونهارًا بأن ليس في الإمكان أحسن مما كان ، فانتظرو' هادئين .

بمرور الوقت أيضًا رأت الحركة الشعبية ، أن الدستور الدائم « الذي يضم بقية أمانيها في تلك الفترة » سيبقى مؤجلًا إلى أجل لن يحين ، فهو فيما يبدو كان يمتلك صوتًا أعلى من صوت المعركة .

أكثر من ذلك ارتدت السلطة الناصرية قفازًا من قطيفة ناعمة ، وراحت تكيل الضربات الموجعة ، والمرعبة للمعارضين بحجة أن المعارضين بمعارضتهم العلنية يفسحون المجال للثورة المضادة وأعداء الثورة من الرجعيين لضرب الثورة وإنجازاتها الشعبية .

كان الواضح « للأسباب السابقة » أن سلطة جمال عبد الناصر ، كانت قد قررت ألا تستسلم للضغط الشعبي « لوي الذراع » وأنها ستظل سائرة فيما هي فيه والذي جلب علينا نكسة لا تحتمل ولكن تحت شعارات جديدة ، براقة كسابقاتها .

لقد بدأ البيان بسحب المبادرة من الجماهير .

وانتهى بتأجيل الأحلام إلى أجل غير مسمى .

إلى أجل لن يتحقق .